الكينونة بحث في حقيقة الكون
بين معطيات العلم والفلسفة والدين

د.طيبات لمير
جامعة الأمير عبد القادر ـ قسنطينة.

ملخص:

سيجيب هذا المقال عن جملة من الأسئلة الفلسفية ذات الطابع الأنطلوجي، الخاصة بكينونة الكون، تتعلق في جوهرها بأصل الكون ومصيره، كما سيناقش بعض القضايا التي تتخلل أنطلوجيا الكون، مثل مسألة المصادفة، ومدى إمكانية الخلق الذاتي للكون، كل ذلك من خلال معطيات العلم، الفلسفة والدين.

Summary :

In this essay we will answer of big and essential anthologie questions as: How about the beginning and the final of the universe ? Is there a chance in the universe creation ? What is this chance essence ? Can be the universe creats it self ?

Haw the science, phylosophie and religion answered about these questions ?

هناك إشكال قديم حديث أثير ومازال يثار حول حقيقة كينونة هذا الكـون، ينطلـق من الإعتقاد بكون الكون وما فيه قديم، أزلـي، وأبدي، أو أن هذا الكون وجد من تلقـاء ذاتـه، أو وجد مصادفة !

إلى أي حد يمكن عد هذه الإعتقادات صحيحة من وجهة نظر أهل العلم الموضوعيين وأهل الحكمة من الفلاسفة النابغين ، وصريح النصوص الدينية من الوحي الصحيح ؟

1. مسألة قدم العالم وأزليته :

العلم الحديث أثبت بطلان هذا الإدعاء : إذ أن القانون الثاني من قوانين الحرارة الديناميكية في علم الفزياء[1] (Seconde law of thermo dynamics) أثبت أن هناك إنتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة، وحدوث عكس ذلك تلقائيا غير ممكن، ممـا ينتـج عـن ذلـك : أن الكون سيصل في يوم ما إلى درجة تتساوى فيها جميع الأجسام حراريا، فتنعدم حينئذ الطاقة الكامنة في كل جسم، مما ينتج عنه توقف العمليات الحيوية، فتتوقف الحياة بتوقفها،وبناء على ذلك فإن الكون : ـ سائر في ذلك الطريق إلى أن تأتي اللحظة الأخيرة التي تفنى فيه طاقته، وتنتهي الحياة بانتهائه.و لو كان الكون ازليا لنفدت طاقته منذ زمن سحيق، لكن تلك الطاقة مازالت كامنة فيه إلى اليوم، والحياة تدب فيه، ومعنى ذلك : أنه أحدث في زمن ما بحيث لا تسمح المدة بين بداية وجوده ووجوده الآن باستنفاذ الطاقة الكامنة فيه وإلاّ كان قد فنى قبل الآن. ومعنى ذلك أن لهذا الكون بداية حدوث، وإذ كان كذلك فإنه له محدث أحدثه، وفي هذا الإطار يقول العالم الإنجليزي المعاصر الكبير السير جيمس في كتابه الشهير (عالم الأسرار) :«تؤمن العلوم الحديثة بأن عملية تغير الحرارة سوف تستمر حتى تنتهي طاقتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجتها، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيها. ان هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن، ومن ثم لابد لها من بداية، ولابد أنه قد حدثت عمليـة في الكون يمكن أن نسميهـا خلقـا في وقت ما، حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزليا»[2]. وعمليتا بدأ الخلق بالنسبة للكون ونهايته، اللتان أثبتهما العلم سبق وأن سجلهما القرآن الكريم وقت نزوله قبل أن يصل العلم أخيرا إليهما.

---

[1] Sir Jeams, The Mysterious univers, P 133· Printed in great britain ,n.d.

[2]: المرجع السابق.

فبالنسبة لعملية بدء خلق الكون نجد الآيات الآتية على سبيل المثال لا الحصر **(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)**[1]. **(أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)**[2].

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ)[3]. **(وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ)**[4]. - وبالنسبة لعملية الفناء الكوني التي ستحدث في لحظة ما تشير إليها مثل الآيات الآتية : **(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا(1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا)**[5]. **(إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجّاً(4) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً(5) فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثّاً)**[6]. **(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ(1) وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ(2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ)**[7]. **(إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ(1) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ(2) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ)**[8]. وهذا الإختلال والفناء الذي سيحدث للكون هو إيذان بحضور يوم القيامة، وموعد الحساب والجزاء. ومثل تلك العمليات التي تحدث عنها القرآن تحدث الآن بصورة مصغرة في كوننا (حيث رصد العلماء عدد كبير من النجوم وهي تتفجر، أو كانت ثم تفجرت)[9]. وهذه الظاهرة التي تحدث في الفضاء الكوني الفسيح توحي بإمكانية حدوث إنفجار كوني شامل في لحظة ما، بما فيه كوكبنا الأرضي ،كما أن مثل هذه الظاهرة تحدث من حين لآخر بشكل مصغر في كوكبنا، المتمثلة في حدوث البراكين والزلازل التي تشهدها مناطق كثيرة من كرتنا الأرضية، و أن العلماء اليوم يقدرون الشمس، مصدر الطاقة، والضوء، والحياة بعمر سابق ولاحق، (أي فهم يقدرون بداية وجودها بحوالي خمسة آلاف مليون سنة، وستموت بعد مدة تقارب خمسة آلاف مليون سنة) [10]. وإن كان هذا التقدير الحسابي الأخير يبقى مجرد احتمال قابل للزيادة والنقصان.

---

[1]: الروم 11.
[2]: العنكبوت 19.
[3]: العنكبوت 20.
[4]: السجدة 7.
[5]: الزلزلة 1-2.
[6]: الواقعة 4-6.
[7]: التكوير 1-3.
[8]: الانفطار 1-3.
[9]: سمير صلاح الدين شعبان ، لماذا تتفجر النجوم المحتضرة ؟ ، مجلة الفيصل، تصدر عن دار الفيصل الثقافية، ع99، رمضان 1405هـ، ص ص 91-99.
[10]: المرجعنفسه.

كما يقدر العلماء بعض المجرات الكونية (بعمر يقدر بزهاء : 15-20 مليار عام نتيجة حدوث إنفجار فضائي هائل لكتلة مكثفة متراصة من مادة نسبة كثافتها عالية)[1] . كل المعطيات العلمية السالفة ذكرها، خاصة تلك المطابقة لآيات الخلق ونهايته في القرآن الكريم تؤكد بطلان قدم العالم وأزليته، وتثبت في مقابل ذلك أن للكون بداية خلق، ونهاية وجود، مما يدعونا إلى التسليم أن له موجدا أوجده، وسيعدمه في يوم ما، وان ذلك الموجود هو الله تعالى.

2. استحالة حدوث الكون بنفسه[2] :

قد يطرح حول وجود الكون إشكالية مفادها : أن الكون يكون قد خلق وحده، أووجد ذاتيا ؟! القول بوجود هذا الكون بذاته دون أن يكون له واجد أوجده يعني : وجود مسبب بدون سبب، أو معلول بدون علة[*]، فيصبح ذلك الاحتمال المطروح في الإشكالية باطلان بناء على تناقضه ومبدأ السببية العقلي الذي أجمعت عليه جميع العقول الفطرية، والفلسفية والعلمية ما عدا الشاذة منها كصنف من الفلاسفة الحسيين أمثال الفيلسوف الإنجليزي دافيد هيوم (David hume) (1711-1776) الذي ادعى : أن لا وجود لهذا المبدأ في الحقيقة، وإنما اعتيادنا على ملاحظة الوقائع والظواهر وهي تتتابع إطرادا يجعلنا نعتقد أن بعضها أسبابا والأخرى نتائج لتلك الأسباب، فهي لا تعدو أن تكون فكرة في الذهن مستوحاة من واقع تتابع الحوادث، وليس هنالك دليل تجريبي يثبت هذا المبدأ[3] . وهذا الإعتقاد ناشئ عن تمسك الحسيين وإيمانهم بالمحسوس المثبت بالتجربة فقط دون غيرها. ومن ثم فإن جميع الأفكار تبقى عندهم رهينة التجربة الحسية، فما وقع في الحس والتجربة أصبح فكرة مسلما بها، وما لم يقع في الحس والتجربة لم يسلم به، يقول دافيد هيوم : «يستحيل علينا أن نفكر في شيء ما لم تحس به من قبل حواسنا الداخلية والخارجية»[4] . لذلك لما لم يكن مبدأ السببية محسوسا مجربا عندهم رفضوه. ولو تأملنا في تعليل الفيلسوف

---

[1]: ف. كوماروف، طرائق علم الفلك، ص 128.تر: عبد الله حيه، دار مير للطباعة والنشر ، موسكو ، 1985

[2]: قد يسمى أيضا : بطلان الترجيح بغير مرجح.

(*):سنوظف مصطلحي : العلية والسببية بمفهوم واحد لضرورة السياق .

[3]:الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل، عبد الرشيد الصادق وجلال العشري، مراجعة وإشراف وإضافة زاكي نجيب محمود، ص 528.

[4]:دفيد هيوم، بحث في العقل البشري، تر : زكي نجيب محمود، دار المعارف، مصر، د.ت.

هيوم في رده لمبدأ السببية لاكتشفنا فيه التسليم بمبدأ السببية ضمنيا دون شعور منه، وذلك حينما رأى : أن سبب إيماننا بالحوادث المتتابعة التي يكون إحداها أسبابا والأخرى نتائجا راجع إلى إعتياد فكرنا على إطراد تلك الحوادث وتتابعها المباشر[1].

هذا يبين : أن التجريبيين إستعملوا المبادئ العقلية قبل التمكن من إرجاعها إلى التجربة الحسية، وبالتالي قبل التمكن من إنكار فطريتها، أي منهج الإستدلال الذي يسلكه المنكر لمبدأ السببية لا يخلو من الإعتراف به ضمنا. كما أن التجريبيين والحسيين عموما في الوقت الذي يعيبون على أصحاب الأديان الذين يثبتون حقائق دينية عن طريق الإستدلال العقلي الذي يعتمد على المبادئ العقلية كمبدأ السببية[*] التي لا تخضع للتجربة العملية نجدهم هم أيضا يعتمدون على التسليم بحقائق غير مثبتة بالتجربة وإنما وضعوا لها مصطلحات أصبحت متداولة في العلوم مثل: القوة : (Force)، الطاقة (Energy) وغيرهما، وبالتالي يصبح العالم المجرب والفيلسوف الحسي عاجزا عن إثبات حقيقة القوة، والكهرباء والمغنطة وغيرها، على غرار ما تعذر على المؤمن بالله إثبات صفات الله بالتجربة. فالجاذبية مثلا متعذرة الملاحظة تجريبيا الشيء الذي جعل إسحاق نيوتن (Isaac newton) (1643-1727م) مكتشفها يعبر عن ذلك بقوله : «إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها و لا إحساس وهي تؤثر على مادة أخرى، مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما»[2]. فالجاذبية قانون معقد غير مشاهد، ومع ذلك يسلم به كحقيقة علمية لا تقبل الجدال. ومعنى ذلك أن الحقيقة ليس شرطا أن تكون محسوسة خاضعة للتجربة، سواء كانت حقيقة دينية أو علمية. فيصبح حينئذ نكران ما هو غير محسوس ومجرب مناقض للعلم نفسه، وحتى العلوم التجريبية التي يعتمد عليها العلم التجريبي تصبح لا قيمة لها ما دامت كثير من حقائقها غير مثبتة بالتجربة، فالرياضيات هي لغة العلوم جميعا، التجريبية منها والنظرية، فكيف يقبلها العلم التجريبي وهي في قمة التجريد الذي لا يقبل التجريب ؟!. يقول الكسيس كاريل (1873-1944م) :«إن الكون الرياضي شبكة عجيبة من القياسات والفروض لا تشتمل على

---

[1]: المرجع نفسه، ص 180.

(*): للاطلاع على حقيقة السببية في المنظور العقدي الإسلامي وعلاقتها بإرادة الله ينظر : محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص ص 287-298 + أبو حامد الغزالي، تهافت الفلاسفة، ص 239.

[2] Works of w. Bentely, III, p. 221، ترجمة ظفر الإسلام خان، ط7،دار المختار، 1-1977، ص 64.

شيء غير (معادلة الرموز) الرموز التي تحتوي على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها»[1]، إضافة إلى ما سلف ذكره، فإن الإنسان يعيش حقائق ما ورائية سابقة للتجربة هي ليست من ابتداعه الخرافي، ولا من تفكيره المثالي، وإنما هي حقائق تفرض نفسها في كثير من الظروف تجعلنا نستبعد حصر الفكر الإنساني في الميدان الحسي التجريبي، الذي أحكم به الحسيون هذا الفكر. إننا نتنبأ أحيانا بحدوث شيء ما سيسعدنا أو سيحزننا إثر شعور إيجابي أو سلبي ينتابنا، فيحدث بالفعل ما توقعنا وتنبأنا به دون أن تكون لنا سوابق حسية بذلك. كأن يشعر أحدنا شعورا طيبا مسعدا، وبعد مدة يصدر عنه فعل خير قام به، ولم يكن يفكر فيه قبل ذلك قط، سواء تمثل ذلك الفعل في قرار يتخذه، أو سلوك عملي يسلكه، أو يشعر أحدنا شعورا مقلقا حادا، أو متشائما، وبعد مدة يصدر عنه كلام أو قرار أو فعل مذموم، أو خطير، أو يشهد مشهدا محزنا أو ينبأ بنبإ مؤلم دون سابق معرفة أو تفكير[*]. فأين ما يقابل هذا الشعور الملهم في عالم الحس والعيان ؟! كل ذلك يدعونا إلى التسليم بما لا يدع مجالا للشك أن العقل الإنساني ليس كل ما فيه من أفكار هي إنعكاس لما سبق وأن تعرف عليه في عالم الحس، بل يخفي في طياته أفكارا متأصلة فيه سلفا، يفهم ويعقل، ويميز بها الأشياء والوقائع، ويتوصل بها إلى إدراك الحقائق، والتي يمكن أن نسميها مجتمعة عقلا. وإلاّ لماذا لا تكون الكائنات الحية التي يصطلح عليها بالراقية على الأقل عاقلة مثل الإنسان، ومنتجة للفكر والمعرفة، وصانعة للحضارة ما دامت تعيش عالم الحس مثلنا ؟ ومن تلك المبادئ الفكرية المتأصلة في عقل الإنسان التي تجعله يتعقل الأشياء خلاف الحيوان غير العاقل مبدأ السببية، أو مبدأ القدرة على الربط بين الجوانب المؤثرة في الأشياء والظواهر التي هي العلل، والجوانب المتأثرة أو المعلولة من الأشياء والظواهر. ومن ثم ووفقا لهذا المبدأ الثابت لدينا يصبح احتمال وجود هذا الكون العجيب بنفسه احتمالا سخيفا باطلا، كسخافة وبطلان اعتقاد من يرى في وجود المسجد القائم وفق عمارة هندسية محكمة الدقة والإتقان، بقببه وصوامعه ومحرابه، ومجهز

---

[1]: الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، تعريب : شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، 1993، ص 15.

(*): نرى أن هناك فرق بين هذه الظاهرة التي يمكن أن نسميها إلهاما، وبين ظاهرة تبادل الخواطر التي نجدها مثلا بين أطباء التحليل النفسي ومرضاهم عن طريق التنويم المغناطيسي، أو حتى عند غيرهم، لأن الأولى مظهر من مظاهر معية الله مع عبده المؤمن، والثانية هي نتيجة لعمليات سبر الشخصية، أو نتيجة لرياضات روحية. وللإطلاع على الظاهرة الأخيرة ينظر : الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، ص ص 293-297.

بمرافقه الضرورية والكمالية، من فرش وتدفئة ومكتبة وما إلى ذلك أنه وجد بنفسه عشوائيا أو أن المادة التي كانت منها جميع العناصر التي وظفت في بنائه تكثفت وتفاعلت فيما بينها وفق الشروط المطلوبة بطريقة خارجة عن معقول الإنسان يستعصي على العقول الذكية فهمها، فكونت هذا البناء المحكم الدقيق دون أن تتدخل في ذلك يد الإنسان العاقل الماهر الذي أوتي حظا وافرا في إتقان هذه الفنون الموظفة في إقامة ذلك المسجد، وهيكلته بما يحتاج إليه من مرافق ووسائل مناسبة لأداء العبادة فيه. ووجود الكون الذي هو أكبر دقة واحكاما وتقديرا من ذلك المسجد أجدر أن يكون له واجد حكيم قدير عليم أبدعه، لم يكن للكون ليوجد لولاه. وهذا الاعتقاد السليم الذي يخرج به العقل من تأمله هو ما يوافق مبدأ السببية الذي يدرك به صاحبه أن لكل مسبب سببه، أي لكل موجود في الكون مؤثر أثر في وجوده، ولا يمكن أن يوجد بنفسه. وهذا ما تتفق عليه جميع العقول كما أسلفنا ذكره، إبتداء من العقل الفطري الأمي الذي يعبر عنه قول الأعرابي، وهو يبرهن على وجود الله بواسطة مبدأ السببية المتأصل في فطرته : البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ليل داج ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا يدل ذلك على الصانع الخبير ؟! كما يدل عليه العقل الفلسفي الذي ما إن تأمل في الكون إلاّ ورجع بقناعة مؤداها : أنه لابد لكل حادث من محدث. وقد عبر عن ذلك قطب الفلاسفة الإلهيين اليونانيين أرسطو (384-322 ق. م) [أن لحركة العالم علة أولى تحركه][1].[يوجد بالضرورة موجود أول ترجع إليه جميع العلل والمبادئ الأولى] [2]. كما يدل عليها العقل العلمي أخيرا. فالمنهج التجريبي بخطواته المعروفة : ملاحظة وفرض وتجربة، ثم استخلاص القانون، يعتمد على مبدأ السببية وقوانينها التابعة لها :

كقانون الحتمية الذي يرى العلماء بمقتضاه : أن القول بالمصادفة أمر ممتنع، بل هناك شروط وأسباب متى توفرت تنبأنا بحدوث النتيجة. يقول الرياضي الفرنسي هنري بوانكاري (1854-1912م) : «العلم حتمي، وذلك بالبداهة، وهو يضع الحتمية موضع البديهيات لأنه لولاها لما أمكن أن يكون»[3].

«وقانون التناسب القائل : أن كل ظاهرة تتفق مع ظاهرة أخرى في الشروط والأسباب يستلزم اتفاقهما في النتائج والآثار. كما أن مبدأ التعميم الذي

---

[1]: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ط3، دار القلم، بيروت، لبنان، ص 179.
[2]: المرجع السابق، ص 170.
[3]: الموسوعة الفلسفية، مرجع سابق .

يقوم به العالم وفق القانون العلمي الذي استخلصه من التجربة العلمية الذي بمقتضاه يعمم ما توصل إليه من نتائج على باقي الظواهر المرتبطة بالظاهرة الأم لا يمكن أن يقوم إلاّ على أساس مبدأ السببية وقوانينها»[1]. فعلى فرض أن : كل المعادن تتمدد بالحرارة هو قانون فإن تعميم تمدد المعادن بالحرارة دون استثناء كان بناء على مبدأ التناسب الذي يجمع بين جميع المعادن القابلة للتمدد بالحرارة، لأنها تشترك في خصائص معينة يكسبها حتمية الدخول تحت القانون المعمم عليها دون أن يلتجئ الباحث إلى إجراء التجربة على جميع المعادن كل بمفرده. فلا يمكن أن يقبل منه هذا التعميم لولا مبدأ السببية وقوانينها.

يتبين لنا مما سبق أن إنكار بعض الحسيين لمبدأ السببية بناء على عجزهم عن ملاحظته حسيا أو عجز العلم عن إثباته تجريبيا، أي إثبات سبب تعاقب الظواهر وفق نظام معين، لا يكون مبررا علميا لرفض هذا المبدأ ونفيه، بل إن ذلك يعبر عن موقف فلسفي ذاتي نابع من قناعة خاصة يبررها عدم الإيمان بما وراء المحسوس. وقد سبق أن بيّنا خطأ هذا الاعتقاد، وذلك الرفض لمبدأ السببية. لكن إثبات السببية هل يعني سريانه وتعميمه على جميع الموجودات بدون استثناء[*] ؟ إن هذا المبدأ لابد أن يتوقف عند نقطة ما يكون عندها سبب أول لا سبب في وجوده، وهو الخالق لجميع ما دونه من الأسباب والمسببات، وإلاّ وقعنا في استحالة عقلية، سببها تسلسل الأسباب والمسببات، حيث يتبادر إلى أذهاننا السؤال الآتي : إلى متى تمتد وتنتهي سلسلة العلل والمعلولات إذا كان لكل شيء سبب. ولذلك السبب مسبب ثان وللثاني مسبب ثالث إلى ما لا نهاية !حيث يكون التسلسل في الأسباب والمسببات أمرا لا حد له. ولذلك فإننا نصنف بعض الأسئلة التي يطرحها بعض المشككين العبثيين حول وجود الله سبحانه وتعالى وحول صفاته في قائمة الأسئلة الخاطئة منطقيا، لأنها أسئلة مغالطة. من مثل هذه الأسئلة : إذا كان الله خالقا فمن خالقه ؟!وإذا سلمنا جدلا القبول بالإجابة عن مثل هذا السؤال بقولنا : خلقه إله أقدر منه ! فإننا لم نحسم الإجابة عن هذا السؤال بعد، إذ كلما كان الجواب عن السؤال تبادر إلى الذهن نفس السؤال من جديد وهكذا إلى ما لا نهاية. فيكون من المنطق السليم إذن أن نغلق حلقات هذه السلسلة اللانهائية من الأسئلة والأجوبة بآخر جواب يحسم

---

[1]: باقر الصدر، فلسفتنا، ط12، دار التعارف، بيروت، لبنان، 1982، ص ص 306-307.

(*): يثير هذا الإشكال بعض الفلاسفة الماركسيين، وللإطلاع على فحواه والرد عليه ينظر : باقر الصدر، فلسفتنا، ص 316.

الدوران العقلي في حلقة مفرغة. وهذا الجواب هو : وجود إله ذو قدرة مطلقة لا تضاهيها قدرة قط. هو الخالق الأول الذي لم يخلقه أحد مادامت قدرته لا مثيل لها على الإطلاق. إذ من غير المسلم به الاعتقاد بإله ننعته بصفة القدرة المطلقة، وما يترتب عن قدرته هذه من إيجاد الموجودات ثم نشكك في قدرته تلك بافتعال الإيهام بوجود مؤثر آخر محدود القدرة يحتمل أنه كان السبب في وجود الإله الذي هو أقدر منه ! ونحن لا نستغرب لمثل هذه الأسئلة الجدالية العبثية التي يجادل بها صنف من الناس، خاصة وأن القرآن أشار إلى مثل هؤلاء المجادلين : **(وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً)**[1] . **(وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ)**[2] . بقدر ما نستغرب للغفلة المنطقية عن مثل هذه الأسئلة التي لا تنتبه إليها بعض العقول، فتتلقفها وكأنها أسئلة صحيحة تحتاج إلى الإهتمام ! وحقيقة وجود إله أول هو الخالق وحده لهذا الكون كما بيّنا، هي الحقيقة التي تلتقي مع ما أخبر به القرآن في هذه المسألة : فالله سبحانه **(هُوَ الْأَوَّلُ)**[3] . ومعنى ذلك : أنه لم يكن هناك أي من الموجودات كلها. بل الله هو الموجود الواحد دون أن يكون معه موجود آخر. ولما وجدت الموجودات فلاشك أن وجودها كان بتأثير ذلك الموجود الواحد الأول الذي لم يكن أحد غيره. وما يدل على ذلك كما أسلفنا أن العلم أثبت حدوث نشأة الكون. وأن احتمال وجود الكون بنفسه محال كما أبطلناه سابقا في دليل السببية. قال تعالى : **(أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍأَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ)**[4] . ويقول إبن القيم الجوزية (691-751هـ) في تعليقة على الآية **(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)**[5] : «فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل. وأن سلسلة المخلوقات في إبتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء»[6] .

---

[1]: الكهف 53.
[2]: الرعد 14.
[3]: الحديد 3.
[4]: الطور 33-34.
[5]: الحديد 3.
[6]: إبن القيم الجوزية، زاد المعاد، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت، ص 93.

3. إشكالية المصادفة ومناقشتها :

هل يمكن أن يكون الكون قد وجد مصادفة ؟ مبدأ السببية المثبت سابقا خاصة قانون الحتمية منه، من العلماء من لم يلاحظ سريانه على بعض الحوادث الصغرى الأمر الذي أدى إلى ظهور اتجاه فلسفي يدعي أن بعض ظواهر الكون أو كلها لا تخضع لنظام معقول وإنما تحدث إتفاقا ومصادفة !والمنطلق العلمي كما ألمحنا سابقا الذي ينطلق منه هذا التيار هو إنتهاء البحث ببعض العلماء أمثال الفيزيائي (Heisenberg. werner) (ت1901م) إلى اكتشاف بعض الظواهر الدقيقة في الميكروفيزياء (الفيزياء الذرية) التي لم يقف لها العلم على قانون يفسرها ولا يستطيع أن يتنبأ بها، إذ هي لا تخضع لقانون الحتمية الساري في العالم الأكبر. مثال ذلك ما أكتشف في عالم الذرة، حيث أن هناك أنواعا من الذرات التي تتميز بخاصية النشاط الإشعاعي كالنشاط الإشعاعي للراديوم الذي تقوم ذراته بالقذف ببعض جزئياتها تلقائيا، مما يثبت أن نشاط الذرة يتضمن حوادث مجهولة الأسباب لا تخضع لقانون الحتمية السببي أي لا سببية ولا حتمية فيها. وهذه النظرية الجديدة فتحت بابا آخر لتفسير الحوادث بالصدفة(*). فالحوادث التي تحدث دون سابق توقع، ودون مبدأ يحدد نظام حدوثها هي التي يطلق عليها: حوادث المصادفة، ويعرف الفيلسوف الفرنسي : لالاند (Laland) (1868-1963م) الصدفة بأنها : «نوع من الحوادث المتأتية عن تساوق أو إلتقاء ظواهر تنتمي إلى مجموعات مستقلة عن نظام العلية»(1). وعلى الرغم من أن القائلين بالصدفة قد أجهدوا أنفسهم لإعطاء مفهوم واضح لها إلاّ أنها بقيت مبهمة وغير مستساغة، الأمر الذي دفعهم إلى وضع حساب لها. سموه: حساب الإحتمال، وهو حساب يقوم على تكرار الحوادث تكرارا يساعد على توقع ما سيحدث، وصاغوا له قانونا كالآتي : ج = ق/م. أي أن الإحتمال المتوقع هو قسمة الحالات التي ستقع على عدد الحالات الممكنة الوقوع. مثال ذلك : أن الإحتمال المتوقع لسقوط زهرة النرد السداسية الوجوه على الوجه الذي يحمل رقما معينا كرقم 6 مثلا =1/6. وبناء على مثل هذا الحساب، سواء كان مقداره صغيرا أو كبيرا تحدث الوقائع بالصدفة ! والسؤال الواجب طرحه بعد بناء الصدفة على حساب الإحتمال هو : إلى أي حد يمكن اعتبار حساب الإحتمال قاعدة صحيحة لبناء إدعاء : أن الحوادث تحدث صدفة ؟ إن فكرة الإحتمال التي يعول عليها القائلون بالصدفة لا تكون في كل حالاتها صالحة لبناء فكرة الصدفة عليها : لأن فكرة الإحتمال

(*): يقابلها في الإنجليزية كلمة : (Chance). وفي الفرنسية : (Hasard).

(1): لالاند، المعجم الفلسفي، مادة الصدفة.

كما يرى كل من : الفيلسوف والمنطقي الألماني مؤسس حساب الإحتمال : كارناب رودلف (Carnap. Rudolf) (1891-1970م)، والفيلسوف الرياضي الإنجليزي : بريثويت رتشارد بيفان (B.R. Buvan) (+1900م)، وكذلك الفيلسوف الرياضي الإنجليزي الآخر : برترندرسل (B. Russel) (1872-1970م) [تستخدم في حالة تكرار الوقوع بمعنى، وفي حالة تقدير وجود الظواهر بمعنى آخر. فبالنسبة للحالة الأولى : يمكن تفسير الإحتمال بنظرية تكرار الوقوع

عندما يكون التقدير العددي ممكنا فقط كما في قولنا : أن إحتمال ***س*** لأن تكون ***ص*** هو ***ب***.

الحالة الثانية **:** لكن حينما يكون الإحتمال لا يبدو فيه التقدير العددي محددا، ولا مقبولا فلا تفسير له حينئذ كما في قولنا : «يحتمل أن تكون هذه الحالة هي الحالة الفلانية» فلا معنى للإحتمال في مثل هذه الحالة غير لفت الإنتباه][1]. وعلى غرار الصيغة الأخيرة للإحتمال تصبح كل الصيغ الإحتمالية المعبرة عن حدوث الوقائع صدفة غير صحيحة، كقول العالم البيولوجي الإنجليزي، توماس هنري هكسلي (T. H. Huxley) (1825-1895م) : «لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا تستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير ! فكذلك كان الكون، الموجود الآن، نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في المادة لبلايين السنين»[2]!وكقولنا أيضا : ان قطعة النقد سقطت على وجهها، أو على ظهرها صدفة، والتقيت بصديقي صدفة، أو بإضافة عبارة : من المحتمل، أو يحتمل إلى مثل هذه الأقوال : فمثل هذه الأقوال لا تعني بالضرورة أن الوقائع المعبر عنها لا توجد لها أسباب عملت على إيجادها، ففي مثالي القطعة النقدية والإلتقاء بالصديق لا يعني ذلك أبدا أنه لم تكن هناك أسباب وملابسات جعلت قطعة النقد تسقط على أحد الوجهين دون الآخر. أو أسباب وظروف اللقاء بين الصديقين معدومة، وإنما كانت أسباب وملابسات السقوط واللقاء مجهولة لدينا. فظروف وملابسات سقوط قطعة النقد كثيرة منها : كيفية القذف، درجة قوته، سرعته، تأثير الجذب، ووضعية مكان السقوط. كلها تتدخل

[1]: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل، عبد الرشيد الصادق وجلال العشري، مراجعة وإشراف زكي نجيب محمود، ص 24.

[2]:Sir Jeams, the mysterious universe, Second edition, published by W. M. collins'sons printed in great Britain, 1969, P P 3-4.

في جعل قطعة النقد تسقط على وضعية ما دون غيرها. حتى لو أزلنا كل الشروط المتحولة التي تؤثر في عملية السقوط فإننا لم نزل كل الأسباب، لأن الشروط الثابتة الباقية هي نفسها أسباب مؤثرة على وضعية السقوط. كما أن إلتقاء الصديقين دون موعد مسبق المعبر عنه : بالصدفة. له أسبابه : كإرادة الصديقين في الحركة نحو نقطة ما، إتباعهما لسبل ما : وتوجيه نظرهما في وقت واحد نحو بعضهما لحظة اللقاء. كلها أسباب أوجدت حادثة اللقاء. إن الحلقة المفقودة في مثل هذه الحوادث المذكورة وغيرها التي ترجع إلى الصدفة ترجع إلى معارفنا غير المحيطة بظروف وأسباب وقوع الحوادث الكبيرة أو الدقيقة، ولا ترجع إلى حدوث الظواهر والوقائع المختلفة، أي لا ترجع إلى كون الوقائع والظواهر لا توجد لها أسباب تفسرها. ولقد عبر الفيلسوف اليوناني ديمقريطس (ق الخامس ق. م) قديما عن هذه الثغرة المعرفية الموجودة في بعض الأذهان حين قال : «لا يوجد في الطبيعة شيء اسمه الصدفة، بل الصدفة خرافة اخترعت لتبرير جهلنا»[1]. ونقطة الضعف هذه موجودة في الإنسان، إذ كثيرا ما يبرر الإنسان جهله للأشياء، وعجزه عن تحقيق بعض الأهداف بتبريرات واهية تغطي إخفاقه، وتختصر له عناء ومشقة البحث والعمل، كما يلجأ إلى السفسطة والدعاوى المثيرة للجدل ذات الطرق الملتوية، وأحيانا يلجأ إلى الجحود المغرض، والكذب الصريح، وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل حال القائلين بالصدفة الذين عجزوا عن الإحاطة بأسباب الوقائع والظواهر المختلفة، كما في قوله تعالى : **(بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَمِن قَبْلِهِمْ)**[2]. وقوله تعالى أيضا : **(وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ)**[3]. نرجع الآن إلى الحالة الأولى حين يكون الإحتمال مقدارا رياضيا لنرى مدى حظ الصدفة بناء عليه، إن حظ وجود الوقائع بناء على قانون الإحتمال حظ نادر جدا إلى درجة كونه مستحيلا في العمليات ذات الأحوال الكثيرة والمعقدة، ولتوضيح ذلك نضرب المثال الآتي : إن إحتمال سحب عشرة (10) أرقام فقط من رقم 1 إلى رقم 10 موجودة بشكل مبعثر في علبة، بشكل متسلسل من 1 إلى 10 هو 1 من عشرة مليارات من المحاولات !وكلما زاد عدد الأرقام التي ستتزاحم في العلبة كلما ارتفعت نسبة الإحتمال إلى حسابات خيالية لا يمكن التعبير عنها، وهكذا إلى ما لا نهاية، لأن في الرياضايات إلى جانب حساب الإحتمال هذا توجد حسابات

[1]: الموسوعة الفلسفية، مرجع سابق.مادة ديمقريطس
[2]: يونس 39.
[3]: الأحقاف 11.

أخرى دقيقة : إذ كلما آل المقدار، سواء كان عددا، أو شكلا هندسيا، أو غيرهما إلى الصغر كلما إقترب إلى النهاية حتى يصل إلى الصفر : ***س =0*** فكذلك الوقائع الموجودة في الطبيعة، فإذا أخذنا على سبيل المثال واقعة بسيطة في مجال المادة الحية من مجموع عشرات الظواهر في هذا المجال وهي : تكون جزئ البروتين. [ففرصةتكوين جزئ بروتيني واحد فقط إتفاقيا، وعشوائيا هو بنسبة 1 من (10)160 أي 1 من 10 مضروبة في نفسها مائة وستون مرة. ولما كان الجزئ البروتيني يتكون من خمسة (5) عناصر من مجموع العناصر الموجودة في الطبيعة وهي : الهيدروجين (H) والأوكسجين (O) والكبريت (S) والكربون (C) والنيتروجين (N) فإن إحتمال التجمع الإتفاقي لهذه العناصر الخمسة مع بعضها من مجموع مائة وثلاثة (103) من العناصر الأخرى (المكتشفة إلى حد الآن) لتكون الجزئ البروتيني يستدعي وجود كمية ضخمة من المادة تفوق حجم الكون كما تصوره إنشتاين البرت (A. Enstein) (1879-1955م) بسيكستلون سيكستلون مرة !كما أن الزمن الذي يحتاجه خروج هذا الجزئي البروتيني يقدر بـ : (10)×(243) من السنين أي 10 مضروبة في نفسها مائتان وثلاثة وأربعون مرة[1] لأن تكرار المحاولة للحصول على النتيجة تحتاج إلى تكثف مادي مضاعف]. وإلى زمن مضاعف، حسب عدد الحالات المتزاحمة إلى درجة تقدير كمية مادية تفوق حجم الكون المتخيل وتقدير زمن يفوق عمر الكون المقدر بخمسة (5) بلايين من السنين. هذه الحسابات الضخمة خاصة فقط بتكوين جزء بروتيني الذي يمثل أحد الوقائع في عالم المادة الحية، ويتعقد الأمر لو حاولنا الإرتقاء إلى بحث الوقائع المعقدة والكبيرة التي يعج بها هذا الكون بناء على حساب الإحتمال !ومن ثم يصبح الإمكان الرياضي بناء على حساب الإحتمال الذي تبنى عليه فكرة وجود الوقائع والظواهر صدفة معدوما. يقول عالم الأعضاء الأمريكي مارلين ـ ب. كريدر : (M. B. Crider) «إن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق ـعن طريق الصدفةـ في نسبها الصحيحة، هو ما يقرب من لا شيء»[2] .إننا لو سلمنا جدلا بوجود شيء، أو حدوث ظاهرة ما بالصدفة هي الظاهرة : (ن) إثر إتحاد مجموعة من الظواهر هي : (أ، ب، ج...) كفرضنا أن هذا الكون وجد إثر تجمع وإتحاد عشوائي لعدد لا حصر له من الذرات... فإن السؤال الواجب منطقيا طرحه هو : ما الذي جعل تلك الذرات تتقارب وتتحد بعد أن

[1]: حوى سعيد ،الله، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1981، ص ص 35-36.

[2]:Sir Jeanms, Mysterious universe, P 189. مرجع سابق

كانت متناثرة، متنافرة ؟ ولماذا لا تبقى غير متحدة كما كانت عليه سابقا ؟ وإذا كان هناك مؤثر فيزيائي أو كيميائي أثر في وجود الكون المادي، وما فيه من أحياء بطريقة ما، فمن أين أتى هذا المؤثر ؟ وكيف فعل فعله ذلك في ظرف ما دون غيره، وشكل نظام الوجود والحياة بالشكل الذي نعرفه ونحياه الآن دون غيره من الأنظمة التي من الممكن أن تظهر بشكل يخالف النظام الحالي ؟ وفي هذه الحالة إمّا : أن يكون الجواب تفسيرا سببيا علميا : يحدد أسباب حدوث تلك الظواهر لا بإرجاعها إلى الصدفة، لأن الأسئلة نفسها ستطرح من جديد كلما كان الجواب : إنها الصدفة !وحينئذ لا يصبح للصدفة معنى بعد أن تأكد وجود تفسير علمي للمشكلة. وإمّا : أن لا يكون هناك جواب علمي يضع حدا لتلك الأسئلة، وتبقى كلمة «صدفة» العبارة القائمة التي تعوض التفسير العلمي الموضوعي للإشكالات المطروحة، وفي إنتظار ظهور ذلك التفسير تبقى كلمة «صدفة» تعبير ضمني عن عجز القائلين بها عن إيجاد تفسير حقيقي للظواهر المبهمة المُشكلة، أي أن تفسير نشأة الكون بلا شيء سوى الصدفة هو تفسير غير علمي، وتصبح كلمة صدفة ومرادفاتها : كالحظ، الإتفاق، والعشوائية، وغيرها لا تعني إلاّ : حدوث نتيجة ما دون أن نعرف أسباب وظروف حدوثها. وفي هذه الحالة يمكن أن يسلم بالمصادفة كمصطلح يدل على عجز الإنسان عن إيجاد تفسير لبعض الظواهر والوقائع لا دالا على عدم وجود أسباب وقوانين تفسر تلك الظواهر والوقائع.

الصرامة العلمية ترفض فكرة الصدفة :

إن التفسير العلمي للظواهر والأشياء يفرض على العالم أن يكون متصفا بمجموعة من الصفات تؤهله إلى تفسير موضوعي، وإلاّ كان عرضة للبعد عن الوصول إلى الحقائق كما هي عليه في الواقع. من تلك الصفات بشكل خاص : الوضعية (Positivisme)، أي تفسير الحوادث تفسيرا واقعيا بعيدا عن الخرافة، وعن التفسيرات المعيارية، والإحتمالية الظنية، التي لا تفيد اليقين فكما يرى العالم التجريبي الفرنسي كلود برنار (C. Bernard) (1816-1887م) : [أنه إذا ما عرضت الظاهرة في التجربة على شكل متناقض في الظاهر، بحيث تعذر وجود صلة حتمية بينها وبين شروط معينة لزم إعتبار تلك الظاهرة غير علمية][1]. والمتأمل في التفسير بالمصادفة يدرك أنه بعيد عن هذه الروح الوضعية. كما أن العلم يعتمد الحتمية مبدأ أساسيا لتفسير الظواهر، فما من

[1]: الموسوعة الفلسفية المختصرة، تعريب، فؤاد كامل، وعبد الرشيد الصادق وآخرون، مادة : كلود برنار، دار القلم، بيروت، لبنان، د. ت.

ظاهرة إلاّ نيتجة حتمية لشروط كافية أدت إلى وجودها. والتفسير بالصدفة بعيد عن هذه الروح العلمية المؤمنة بالحتمية. ومن خلال نتائج العلم نفسه نتساءل : لماذا كان كل شيء في العلم الإنساني يخضع للقانون والنظام، ويأبى أن ينسبه إلى الخرافة والمصادفة، ولا يهدأ للعلماء بال حتى يجدوا تفسيرا موضوعيا للظاهرة المشكلة من أصغر جرم في المادة وهو الذرة إلى أكبر جرم وهو الكون، ومع مرور الزمن يكشف العلم يوما بعد يوم عن القوانين والأنظمة المتحكمة في الظواهر والوقائع التي كانت سابقا مجهولة لديه، إلاّ أصل وجود الكون والحياة نجد من يتعجل في تفسيره بنظرية واهية بعيدة عن الصرامة العلمية التي تسعى وتهدف إلى تفسير الظواهر والأشياء تفسيرا علميا موضوعيا صارما حاسما، متجاهلا تجاهلا تعسفيا قيمة العلم المتمثل في كل تفسير صحيح للأشياء والظواهر ؟!

النظام والتنسيق والإبداع في المخلوقات ينفي المصادفة :

من المناسب للتفرقة بين العمل المنظم المبدع، وبين العمل العشوائي الفوضوي غير الهادف أن نسوق المثال الآتي : إن وجود شخص آلي صنعه الإنسان وفق تطبيقات عملية لقوانين فيزيائية كيميائية بإمكانه تقديم خدمات للإنسان وفق برمجة خاصة من الإنسان صانعه بحيث تأتي تلك الخدمات المتمثلة في أعمال مختلفة منسقة ومنظمة بشكل دقيق محكم كما خططها وبرمجها الإنسان ثم أودعها في الشخص الآلي، نسلم جدلا أن هذا الشخص الآلي وجد بنفسه إثر عمليات عشوائية للمادة الجامدة وإن كان ذلك أبعد ما يكون عن الحقيقة، ويقوم بحركات متعددة، ومنها الكتابة مثلا، إن وجدناه قد أفلح بطريقة عشوائية في رسم بعض الحروف وخط بعض الكلمات المعقولة، فهل يفلح في صياغة عبارات ذات دلالات علمية، وفكرية وروحية... ذات إنسجام وتنسيق في بيانها، أو إعرابها ومصطلحاتها وقد سلبنا منه البرمجة المناسبة للكتابة ؟

إن الإجابة بالإثبات يعتبر سخفا عقليا بداهة !كذلك هذا الكون، فعلى فرض كونه وجد عشوائيا، مع أنه أبعد ما يكون عن المعقول، فإنه من غير المعقول أن يكون النظام والإبداع والتنسيق بين مختلف جوانبه من فعل المصادفة، لأن المصادفة إن وجد على إثرها شيء، وأبدعت ونظمت فيه فإنها ستخبط خبط عشواء في أشياء أخرى. ولذلك فإن هذا العالم بما فيه لا يلاحظ في أي من مجالاته المختلفة أية عشوائية أو فوضى، بل الملاحظ فيه سنن وقوانين في غاية الدقة والإحكام، تقوم كلها بوظائف معينة لتحقيق غايات محددة. وسنعرف فيما يأتي أمثلة من ذلك النظام والإنسجام الذي ينفي أية عشوائية أو فوضى في هذا العالم العجيب في إبداعه ونظامه :

أ. التنسيق والتقدير في الكون :

ما من ظاهرة من ظواهر الطبيعة التي يعج بها هذا الكون إلاّ ونجدها خاضعة لقوانين وسنن تتحكم فيها لتأدية رسالة معينة، منها من استطاع الإنسان إكتشافها، ومنها من لم يفلح في الكشف عنها بعد، والمتأمل في سريان تلك السنن والقوانين يدرك جازما أنها مقدرة تقديرا. فإذا تأملنا القمر مثلا كظاهرة بائنة ومشهورة في هذا الكون بالنسبة للإنسان، فإن أهم خاصية يمتاز بها هي : وجوده بحجم معين ووجوده في وضع مناسب بالنسبة للأرض التي يسكن فيها الإنسان. إذ لو كان القمر في وضع غير وضعه الحالي بالنسبة للأرض لما كانت الظروف مساعدة للحياة على الأرض، [فلو إقترب من الأرض بمسافة ستين ألف ميل (60000) فسيزيد المد والجزر بأربعة وستين (64) مرة عما هو عليه في حالته الطبيعية، فتغمر المدن، وتلتقي البحار، فيهلك النسل والحرث وتزول العمارة الإنسانية، أمّا القمر فسيتفتت ويصبح سحبا من الغبار تدور حول الكرة الأرضية] [1]. وكذلك الأمر بالنسبة للشمس : فلو زادت منا إقترابا أو زادت الأرض إقترابا منها أثناء دورانها حولها، أو إزدادت الشمس طاقة وحرارة لأحترقنا. ولو كانت أبعد عنا عما هي عليه الآن لتجمدنا. وكثير يقال عن مثل هذا التقدير والإحكام في سائر ظواهر الكون الكثيرة.

ب. التقدير والتنسيق في الأنفس :

إن من أعجب المخلوقات إثارة للإنتباه الإنسان، نظرا لعظمة خلقته، وتوافق وانسجام جانبيه : الروحي والجسدي من جهة، وتوافق وانسجام مختلف أعضائه الجسمية مع بعضها من جهة أخرى. وإذا خصصنا واحدة من حواسه فقط بالتأمل دون سائر جوانبه الأخرى لأدركنا عظمة التقدير الإلهي في الكائنات المبصرة. فالعين لا يبصر بها الإنسان فقط لأنها موجودة كما يدعي ذلك الآليون[2] وفق آليات فيزيائية كيميائية وحدها على غرار الظواهر الفيزيائية والكيميائية الخاضعة لقوانين تتحكم فيها. ونحن إذ لا ننكر الآليات الفيزيائية الكميائية التي تدخل في تركيب أية عملية خلق وحدوث وفق قوانين

---

[1]: مقال لشوقي أبو خليل. م. العلم والإيمان، تحت عنوان : «حقائق علمية عن القمر والشمس من خلال القرآن الكريم»، ع = 55،56، يوليو 1980 ص 43.

[2]: الآليون، (هم الذين يبدو لهم الجسم المتعضي الحي بمثابة آلة اعتيادية من نموذج فيزيائي كيمياوي معا، قوانين تشكله، ووظائف تشبه إلى حد ما قوانين الآلات، فالعين مثلا كبقية الأعضاء نتيجة مصادفات، فالإنسان يبصر لأن له عينان ولم تخلق له عينان ليبصر بهما)، الموسوعة الفلسفية المختصرة، مرجع سابق، مادة : الآلية.

خاصة بالفيزياء والكيمياء، لأن كل ظاهرة في الكون تتحكم فيها سنن وقوانين، فإننا بالتوازي مع ذلك نسأل : من هيأ المادة الفيزيائية الكيميائية وسن قوانينها ؟ والحقيقية التي تمثل الإجابة عن هذا السؤال يتجاهلها الآليون ليبرروا موقفهم الآلي المبني على فكرة المصادفة التي سبق وأن بينا خطأها. إن التوافق والإنسجام اللذين يسودان هذا الكون يجردان أي ظاهرة تحدث في الكون من قدرة المادة لوحدها على إبداعه وانسجامه مع الظواهر الأخرى، وأداء وظيفته أداء يخدم سيرورة الحياة واستمرارها. إننا لو سلمنا جدلا أن الإنسان يبصر لأن له عينان متجاهلين بهذه العبارة الإله الذي خلق العينين للكائنات من أجل أن تبصر فإن تأملنا حاسة الإبصار هذه ووقوفنا على بعض خصائصها الفيزيولوجية الخارجية فقط بغض النظر عن باقي الخصائص الأخرى : كوجود العين في قوقعة تحميها من خطر الحوادث، وحواجب تحميها من العرق، وأهداب تحميها من الغبار والحشرات... فإن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا بإلحاح هو: هل المادة تتحول إلى عقل مدبر يوجد هذه الخصائص كلها بعد إدراكها بإمكانية حدوث صدمات قد تقضي على العين، ووجود مسامات في الجلد تفرز العرق، ووجود رياح تنقل الغبار، ووجود حشرات مؤذية للعين... ؟!إنه من السخف العقلي الإعتقاد بأن الآليات الفيزيائية والكيميائية تتحول إلى عقل مفكر مدبر يهيء الظروف المستقبلية المناسبة لحياة الكائنات الحية !ننتقل بعد هذا المثال إلى مثال آخر لا يقل أهمية عن الأول : إذا سلمنا جدلا أن حوادث عشوائية ما قد نتج عنها جنس من المخلوقات الحية هو الرجل الإنسان فهل يعقل أن يوجد له في المقابل زوج أنثى يحمل من الشروط والمواصفات ما يجعل منهما الإثنين زوجين منسجمين يحملان رسالة عظيمة هي حفظ النوع البشري ؟! وأكثر من ذلك عجبا أن يوجد بينهما رباط روحي يجعلهما يميلان إلى بعضهما ليشيدا صرح بقاء النوع الإنساني، ولو تنافرا لما بقي النوع البشري منذ زمن سحيق. ونفس ما قيل عن البشر يقال عن سائر الأزواج في عالم الكائنات الحية. إن مثل هذه الحقائق التي يعج بها عالم الأنفس لا تكون إلاّ بتقدير الخلاق العليم الذي أخبرنا عنها في كتابه القرآن العظيم في غير ما آية **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّفِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)**[1]. **(وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)**[2].

[1]: الروم 21.
[2]: الذاريات 49.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى)[1]. وقال عن الإنسان بما وهبه من أعضاء وجوارح : **(وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)**[2]. **(أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ(8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ(9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)**[3]. **(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)**[4]. وإلى جانب كل هذا فإن ما يزيد تلك الحقائق السالفة صدقا، أن يوجد رسول قبل خمسة عشر قرنا، موجود في الكتاب الذي أوحي إليه أن مادة اللقاح عند الرجل هي مصدر نوع الإنسان المخلوق في رحم أمه ذكرا كان، أم أنثى، قبل أن يتوصل العلم في هذا القرن إلى هذه الحقيقة، وكان الإعتقاد السائد قبل هذا الإكتشاف : أن المرأة هي المسؤولة عن ذلك. قال تعالى : **(أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى(37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى(38) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى)**[5].فقد أثبت العلم [أن الحيوانات المنوية نوعان حسب الصبغي الذي يحمله الحيوان. فالنوع الأول : يحمل صبغيا يرمز له بـ : (X) والنوع الثاني : يحمل صبغيا يرمز له بالرمز : (Y). بينما الخلية (البويضة) الأنثوية تحتوي على نوع واحد من الصبغيات وهي الصبغي إكس (X) التي ترمز للأنوثة. فإذا التحم حيوان منوي من صيغة (x) بالبويضة ذات الصيغي (Y) كان الصيغة الجديدة للبويضة الملقحة هي : (XY) فيكون الجنين ذكرا. وإذا كان الحيوان المنوي الملقح للبويضة من صيغة إكس (X) كانت الصيغة الجديدة الناتجة عن اجتماع صبغي الحيوان المنوي والبويضة هي : (XX) فيكون الجنين أنثى. وهكذا جعل الله الرجل هو مصدر تحديد نوع الجنين ذكرا، أم أنثى بفضل ما أودع الله فيه من مادة اللقاح المسؤولة عن ذلك][6]. فلماذا لا تعمل الصدفة عملها لتكون المرأة ولو مرة واحدة هي المسؤولة صبغيا عن نوع الجنين بناء على عملية التكرار ؟ إن التقدير الإلهي المسبق لخلق الإنسان هو الذي أحكم هذه السنة في عملية التكاثر وإلاّ لحدث ذلك مرارا وتكرارا **(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً)**[7]. **(صُنْعَ اللَّهِ**

---

[1]: النجم 45.
[2]: النحل 78.
[3]: البلد 8-10.
[4]: الأنعام 46.
[5]: القيامة 37-39.
[6]: خالص جلبي، الطب محراب الإيمان، ج1، دار الهدى، الجزائر، 1991، ص 77.
[7]: الفرقان 2.

الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ)[1].

ج. التوافق والإنسجام بين الكون ووجود الإنسان :

إلى جانب الدقة والإحكام الموجودين في كل من عالمي الآفاق والأنفس فهناك أيضا رباط وإنسجام بين العالمين شديد الإحكام والملائمة، الأمر الذي يجعلنا نستبعد أي عملية عشوائية تكون قد فعلت فعلها في هذا الكون بشكل مطلق. فتأمل بسيط في هذا الكون يقودنا إلى ملاحظة ذينك الإبداعين : الدقة والإحكام في كل شيء، والإتفاق والإنسجام بين الأشياء باديان بشكل واضح. فعلى سبيل المثال لا الحصر : هناك توازن مدهش في الكون يوفر الظروف المناسبة لاستمرار حياة الإنسان فيه : فالأرض مذللة للزرع والغرس والإنبات، وإخراج أنواع من الأغذية والثمرات. **(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ)**[2]. كما تحتوي على مصادر لإنشاء الحضارة، من طاقة ومعادن مختلفة **(الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ)**[3].

(وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)[4]. وتحتوي على مصادر المياه المختلفة : من محيطات وبحار وأنهار... تحتوي بدورها على مصدر هام للغذاء والمتاع، ولولا وجود الماء لما أمكن للإنسان أن يحي أو تحي الكائنات والنباتات التي يحي على أساس الإنتفاع بها : **(هُوَالَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ(10) يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)**[5]. **(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)**[6]. **تَشْكُرُونَ)**[6]. **(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)**[7].

---

[1]: النمل 88.
[2]: الملك 15.
[3]: يس 80.
[4]: الحديد 25.
[5]: النحل 10-11.
[6]: النحل 14.
[7]: الأنبياء 30.

(وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ)[1]. **(إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)**[2]. والشمس تعطينا من نورها وحرارتها قدرا ملائما ـ يجعل حياتنا على الأرض ممكنة، ولولا وجودها لما كانت الحياة ممكنة على الأرض كما أن القمر لا يقل أهمية عن الشمس بالنسبة لحياة الكائنات الحية جملة. **(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)**[3]. كما كما أن كوكبنا الأرضي على خلاف الكواكب الأخرى المكتشفة إلى حد الآن الوحيد الذي يحتوي على الأوكسجين الذي بدونه لا يمكن للإنسان أن يحي، والمدهش أن نسبة هذا الغاز موجودة بمقدار يناسب المحافظة على وجود الإنسان واستمرار بقائه، إذ لو فاق المقدار الحالي (21%) بضعفين أو ثلاثة أو قل عنه لاختل نظام الحياة على هذه الأرض إذ كلما تحررنا عن الغلاف الجوي الأدنى المحيط بالأرض وزدنا إبتعادا كلما نقصت تلك النسبة إلى حد يستحيل التنفس إلاّ إذا اصطحبنا القارورات الصناعية المملوءة بغاز الأوكسجين. لذلك قال تعالى : **(...وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)**[4]. فإلى جانب كل هذه الظروف المناسبة للحياة يوجد كائن حي هو الإنسان، ينعم بحياة هنيئة في وسط كون يسير بنظام وإحكام وتوازن دون اختلال. أفيعقل أن يكون هذا التوازن والإنسجام في الكون وجد عشوائيا ؟! إن هذا التطابق العجيب بين آيات الله في القرآن وآياته في الأنفس والأكوان يبين بما لا يدع مجالا للشك أن الإنسجام والدقة والإحكام الموجودة في هذا الكون هو من تقدير الله تعالى خالق الكون والإنسان، ومنزل القرآن. وتبقى فكرة الصدفة سخافة عقلية يمجها المنطق السليم والعلم الصحيح ولا يقول بها إلاّ شرذمة ممن بهرهم العلم دون تبصر وإعمال للعقل، وبدون مقارنة للحقائق العلمية والدينية الصحيحة. إن العقلاء من أهل العلم يرجعون من طول بحثهم وتأملهم بفكرة واحدة عن الكون هي : عظمة هذا الكون وإبداعه بيد خالق مقدر، جدير الإيمان به، يقول السير جون إكليس[5]. «لقد فعل العلم الشيء الكثير في تحطيم إيمان الإنسان بعظمته الروحية واستبدال ذلك الاعتقاد بأنه مجرد حيوان لا أهمية له

---

[1]: الأنبياء 32.
[2]: هود 57.
[3]: يونس 5.
[4]: الأنعام 125.
[5]: طبيب وعالم بحاثه في ميدان الدماغ والأعصاب، نال جائزة نوبل في علم وظائف وظائف الأعضاء.

ظهر بالصدفة وبالضرورة على كوكب لا أهمية له في هذا الكون العظيم الإتساع. ولكن ذلك لا يعني أن الدين والعلم على طرفي نقيض[1] بالضرورة، فالفيزيائي الكبير ماكس بلانك (Max. Plank) (1858-1947م) كان كاثوليكيا ممارسا، وألبرت إنشتاين (A. Enstein) (1879-1955م) كان يؤمن بالله صانع الكون، كذلك كان ورنر هايزنبرغ[2] (1901م) العالم الفيزيائي المشهور يحمل أفكارا دينية ولو أنه لم يكن يمارس الطقوس الدينية، ثم إني مسيحي أمارس مسيحيتي إنني وزميلي السير كارل بوبر فيلسوف العلم الكبير الذي إشتركت معه في بحث هذا الموضوع يعتقد ما أعتقد، كل يعتقد بروعة الوجود العظيمة. نحن نؤمن بعالمين معا عالم مادي وعالم عقلي روحي في وقت واحد»[3].

ويقول العالم الطبيعي الأمريكي جورج إيرل ديفيس : «لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق وفي هذا الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود الإله ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيبا، إله غيبيا وماديا في آن واحد !إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره بدلا من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات»[4].

4. دليل الفطرة :

الفِطرة في اللغة هي : «الخلقة»[5]، أو الجِبِلَّة ؛ [لأن الجبلة معناها الخلقة كما في قوله تعالى : **(وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ)**[6]][7] وقال عنها سبحانه وتعالى : **(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)**[8]. وقوله صلى الله عليه وسلم : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه

---

[1]: العالم يتكلم عن علاقة العلم بالدين إنطلاقا من المسيحية بصفة مسيحيا.

[2]: هو الفيزيائي الألماني صاحب نظرية اللاحتمية في العالم الأصغر (الميكروفيزياء).

[3]: السير جون إكليس : «العلم مازال عاجزا»، مجلة الجيل، ع8، أغسطس 1988، ص52.

[4]:G. E. Device, The evidence of good, P 71. مرجع سابق

[5]: أبوبكر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، ص 212.

[6]: الشعراء 184.

[7]: المرجع السابق، ص 39.

[8]: الروم 30.

يهودانه، أو ينصرانه أو يمجسانه...»[1]. فصاحب الفطرة السليمة مجبول على الإقرار بوجود الله تعالى ؛ لأن الفطرة في الآية والحديث تعني أن الله «خلق الناس قابلين للتوحيد ودين الإسلام غير نائبين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبا للعقل مساوقا للنظر الصحيح»[2]. كما تعني أيضا : [تأصل الدافع إلى الإيمان[3] الإيمان[3] بوجود الله في نفس كل إنسان و الشعور به][4]. وبدهية هذه الفطرة في كل إنسان جعلت الرسل الذين يتلقون جحودا وإنكارا للحقائق الإيمانية من قبل بعض أفراد أقوامهم، يتساءلون تساؤل تعجب وإنكار ممن يشككون في وجود الله تعالى !**(قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)**[5]. وقد عبر الفيلسوف رينه ديكارت (René Descartes) (1596-1650) عن هذه الفطرة بقوله : «وفكرة الألوهية ليست مأخوذة من الحس، ولا هي من إصطناعي، وإنما هي منقوشة في طبيعتي، وكأنها خاتم الصانع المنقوش على ما صنعته يداه (...) عندما أتأمل ذاتي. فإني لا أعرف فقط أنني كائن ناقص متعلق بغيري يسعى دائما إلى ما هو أفضل، ويطمح إليه، بل أعرف في الوقت نفسه، أن الكائن الذي يتعلق وجودي به، له جميع الكمالات التي أطمح إليها (...) وهو ينعم بها بالفعل، وبمقدار غير متناه، فهو الله»[6]. وهذا الشعور الفطري يبقى دائما يقظا في الإنسان، يجعل صاحبه مؤمنا بالله دون أن يحتاج إلى دليل على وجوده، ما لم تُكدر نفسه، ويُشوش عقله بفعل عوامل خارجية، كالتربية التي يتلقاها في محيط معين التي تستطيع أن تحجب عن صاحبها تلك الفطرة النقية، وتدخله في تصورات جديدة هي من نتاج البيئة الجديدة. وهذا ما نفهمه من الشطر الثاني من الحديث النبوي :... فأبواه يهودانه، أي يجعلانه يهوديا، بما

---

[1]: البخاري، الصحيح، ج6، عالم الكتب، بيروت، 1985، ص 207.

[2]: الزمخشري، الكشاف، ج3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د. ت، ص 222.

[3]: لا يمكن فهم معنى الفطرة هي كون العقيدة ومبادئ الدين منطبعة في الطبيعة الإنسانية، إذ لو كان الأمر كذلك لاستحال أن ينحرف الإنسان عن تلك العقيدة المتأصلة فيه.

[4]: مقداد بالجن، يوسف مصطفى القاضي، علم النفس التربوي في الإسلام، دار المريخ، السعودية، 1981، ص 41.

[5]: إبراهيم 13.

[6]: جنفياف روديس لويس، ديكارت والعقلانية، ترجمة عبده الحلو، ط3، دار عويدات، بيروت، باريس، 1982، ص 55.

تتضمن لفظة : «يهودي» من تصورات وسلوكات أو يمجسانه، أي يجعلانه مجوسيا، بما تتضمنه لفظة : «مجوسي» من تصورات وسلوكات، هي مخالفة للفطرة الأصلية النقية... وكم هو جميل جلاء الفطرة وحضورها ويقظتها كما يصورها لنا أحد العارفين وهو إبن عطاء الله السكندري !(تـ 1309م) : «إلهي كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟! أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك ؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟!»[1]. وقد تحتجب هذه الفطرة عن صاحبها بفعل عوامل كثيرة : كالإخلاد إلى الأرض والإنغماس في ملذاتها، والغفلة عن ذكر الله، وقطع الصلة به كما قال الله تعالى : **(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ)**[2]. **(اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)**[3]. **(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ)**[4]. لكن على الرغم من هذا فإن الإنسان في وقت الشدة والكرب يصحو من غفلته فتستيقظ فطرته، وتنكشف الحجب التي كانت تسترها، فيتذكر ربه، ويدعوه دعوة المضطر الذي لا يجد منجى ولا ملجأ إلاّ إليه. وقد أشار القرآن إلى مثل هذه الأحوال في كثير من المواضع : **(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّمِنَ الشَّاكِرِينَ(22) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...)**[5]. **(وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ...)**[6]. **(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ)**[7]. **(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِمِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً**

---

[1]: عبد المجيد الشرنوبي، شرح حكم إبن عطاء الله السكندري، ط11، دار إبن كثير، دمشق، بيروت، 2008، ص 273.

[2]: الحشر 19.

[3]: المجادلة 19.

[4]: المطففين 14.

[5]: يونس 22-23.

[6]: الإسراء 67.

[7]: الروم 33.

لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ)[1]. وهذه الفطرة التي تنطمس تارة وتنجلي تارة أخرى عبر عنها بعض علماء النفس : [بدافع التقديس، أو غريزة العبودية، إذ يعتبرها وليم مكدوغل زعيم علم النفس الغرضي ضمن النزعات الفطرية في الطبيعة الإنسانية][2]. وأكثر من ذلك [أن بعض الفيزيولوجين يثبتون فطرية تدين الإنسان في جانبه الفيزيولوجي، إذ أرجع الطبيب الفيزولوجي: الكسيس كاريل فطرية التدين هذه إلى الهرمون الذي تفرزه الغدة الدرقية، وهو هرمون (النيروسكين) الذي يصب في الدم][3]. وهذه الحقيقة لاشك فيها ؛ لأن العلاقة جد جد وثيقة بين الجانب الفيزيولوجي والجانب السيكولوجي، إذ العلاقة بينهما علاقة تأثير وتأثر كما هو الحال، على سبيل المثال لا الحصر، في العلاقة بين الجهاز الغدي والحالات النفسية المختلفة التي تعتري الإنسان من وقت إلى آخر. [فالإفراز النشط للغدة الدرقية مثلا يؤدي إلى زيادة نشاط العمليات الحيوية فيؤدي ذلك بصاحبها إلى القلق وسرعة الإنفعال الشديد، وإن قل نشاطها أدى ذلك إلى الخمول في الحركة والتفكير والإستجابة إلى المؤثرات][4]. كما أن الأبحاث والدراسات الخاصة باعتقادات الشعوب [دلت على أن الدين لازم الإنسان في كل عصوره، وهذا خلاف ما حاول إثباته أصحاب النظريات الاجتماعية المشككة في وجود الايمان بالله ووجود دينه، إذ يخلط هؤلاء بين الدين والخرافة، ويعتبرون الأول نتيجة للثانية !كما فعل أصحاب المدرسة الاجتماعية الفرنسية بزعامة : فولتير[*] (Voltaire François Marie dit)(1694-1778) واتباعه أمثال : جان جاك روسو (Jean Jacque Rousseau) (1712-1778)، وأوغست كونت (Auguste Counte) (1798-1857)، فهم يعتبرون الدين طفرة في حياة الإنسان ظهر نتيجة لظروف قهرية

---

[1]: الزمر 9.

[2]: مكدوغل، مقدمة لعلم النفس الإجتماعي، ترجمة لطفي فطيم، دار الطليعة، بيروت، 1973، ص 200.

[3]: الكسيس كاريل، تأملات في سلوك الإنسان، تعريب : شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف، بيروت، 1995، ص 29.

[4]: كاريل، الإنسان ذلك المجهول، مرجع سابق، ص 108.

(*): [رغم افكار فولتير للوحي، وسخريته من المسيحية والكنيسة الكاثوليكية إلاّ أنه لم يكن ملحدا، بل كان يؤمن بالله الواحد خالق العالم]، لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيات، الموسوعة الفلسفية، مادة فولتير، ترجمة سمير كرم، ط4، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص ص 357-358.

مرّ بها الإنسان، كقساوة الطبيعة، وخداع الكهنة][1]. ولزوم الدين للإنسان منذ وجوده على هذه الأرض حقيقة أثبتها القرآن الكريم، فالدين أمانة حملها الله كل بني آدم منذ وجود أبيهم الأول إلى قيام الساعة، فأمرهم باتباع طريقه المستقيم المتمثل في الدين الذي شرع لهم، ونهاهم وحذرهم عن اتباع غيره مما يأمر به الشيطان وأعوانه كما في قوله تعالى : **(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ(60) وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)**[2]. وقوله : **(وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ)**[3].

5. دليل اسم الله على كل الألسنة :

إن اسم الله تنطق به كل الألسنة : الحالية، ونطقت به الغابرة، وستنطق به الآتية، ومن ثم يكون الله أكبر شهادة، شهادة تشهد بها العقول التي تتذكره والأفئدة التي توجل من ذكره، وشهادة الألسنة التي تنطق به. وأكبرها شهادة الله على نفسه، وشهادة وجود اسمه في كل زمان ومكان الذي يدل على وجوده تعالى. إن الناس وهم ينطقون باسم الله كأنهم يتمثلون قوله تعالى : **(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهِ شَهِيدٌ بيْنِي وَبَيْنَكُمْ)**[4]. وقوله : **(وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ)**[5]. [ما من لغة من لغات الأقوام المختلفة إلاّ وفيها لفظ يشير إلى الإله، وهذا يعني أنه لو لم يوجد تصور الله في أذهان البشر أفرادا وجماعات، شعوبًا وأُمَمًا لما وجد له اسم في لغاتهم ؛ لأنه لا يمكن التلفظ بكلمة لها دلالة معينة ما لم يكن معناها متصورا ومدركا في الذهن، وهذا دليل آخر على الإقرار بوجود الله][6]. ووجود اسم الله على كل الألسنة يطرح تساؤلا عن مصدر وجود اسم الله بأية صيغة كانت في لغات جميع الأقوام ؟ فإذا غضضنا الطرف عن كون الإقرار بوجود الله تعالى يشهد به بداهة الرجوع من التأمل في ملكوته فإن الجواب عن مصدر وجود اسمه يرجع إلى آدم أبي البشر الذي يكون أول من نقله إلى أبنائه عن طريق الوحي الموحى إليه،

---

[1]: عبد الجليل شلبي، «علم مقارنة الأديان وأثره على الفكر الإسلامي»، مجلة العلم والإيمان، عدد يوليو ـ أغسطس (67-68)، 1981، ص 112.

[2]: يس 60-61.

[3]: فاطر 24.

[4]: الأنعام 19.

[5]: المائدة 106.

[6]: محمد متولي الشعراوي، The proof of Allah existance and oneness, P 36، تعريب : محسن إبراهيم الدسوقي، شركة الشهاب، باتنة، الجزائر، 1986.

وبواسطة التبليغ الذي قام هو بأدائه. نستشف ذلك من قوله تعالى : **(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(31) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(32) قَالَيَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ)**[1]. [أي علمه أسماء المسميات][2].[فقد شرف الله آدم على الملائكة بأن خصه بعلم أسماء كل شيء][3]. وإذا كان الله قد علم آدم أسماء المسميات فكيف لا يعلمه أشرف اسم في الوجود على الإطلاق وهم اسم الله تعالى ؟ إنه لاشك أن آدم هو الأول من البشر الموحى إليه باسم الله، والمبلغ عن الله اسمه وصفاته إلى أبنائه وأحفاده حين نزل إلى الأرض. فيكون اسم الله لفظا ومعنى متواترا من لدن آدم إلى يوم القيامة، كما هو الحال بالنسبة للقرآن الذي تلقاه النبي صلى الله عليه وسلم من الله وحيا وتعليما. فرواه جيل عن جيل تواترا إلى يومنا هذا. قال الشعراوي : «فالكلمة التي تسمى الله في جميع اللغات، إنما تأتي إلى الوجود لأن معناها قد وجد في عقل الذي أعلنها أولا وهو آدم عليه السلام»[4].

إن الدلائل السابقة وحدها كافية في نظري بما لا يدع مجالا للشك في إثبات حقيقة الكينونة الكونية من حيث الأصل ومن حيث المصير، ويبقى رفض هذه الحقيقة الكبرى الخالدة بعد ذلك ضرب من التشكك الذي يعتري شخصيات بعض الأفراد الناتج عن الأزمات النفسية المختلفة الناتجة بدورها عن الظروف التي مرَّ بها المنكر للحقيقة، والعازف عنها، كالظروف التعسفية الظالمة التي مرَّ بها بعض علماء وفلاسفة القرون الوسطى المسيحيين في ظل القهر المسلط عليهم من الكنيسة ورجالها، الأمر الذي نتج عنه بعد ذلك ردة وإلحاد[5] سافران كرد فعل طبيعي للقهر الفكري والجسدي الممارس عليهم آنذاك[6]. بل كان رد الفعل من بعض الفلاسفة فاحشا. حيث تعدى الكفر بالدين المسيحي وإلهه إلى الكفر بجميع الحقائق الميتافيزيقية في الأديان الأخرى وإن لم يفعل علماؤها ما

---

[1]: البقرة 31-33.
[2]: الزمخشري، الكشاف، ج1، ص 272.
[3]: إبن كثير، التفسير، ج1، ط8، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1988، ص 126.
[4]: محمد متولي الشعراوي، المرجع السابق، ص 38.
[5]: الإلحاد هو الميل والإنحراف عن الحقيقة، أو عن الطريق الموصل إليها.
[6]: لجنة من الأكادميين السوفيات، الموسوعة الفلسفية، مادة مذهب إلحادي، تعريب، سمير كرم، ط4، دار الطليعة بيروت، 1981، ص 467.

فعل رجال الكنيسة بالدين المسيحي. كإلحاد الفيلسوف السياسي الاقتصادي الكبير في القرن التاسع عشر كارل ماركس (Karl Marx) (1818-1883)، وصديقه فردريك إنجلز (Fredrick Engels) (1820-1895) نيتجة لقراءاتهما عن مآسي الشعب الأوربي الذي كان وراءه رجال الدين المتحالفون مع رجال الإقطاع والرأسمال، ونتيجة للظروف القاهرة التي مرَّ بها في ظل النظام الرأسمالي الذي يستتر وراء القيم الدينية. كما أن نكران الحقائق الميتافيزيقية، قد يكون ناتجا عن أمراض نفسية أخرى وعقلية كالجحود المتعمد رغم الدلائل الصريحة التي تشهد على تلك الحقائق. أو الرغبة في المحافظة على المصالح الشخصية، والأنانية، وتفضيل اللهو والمجون، وعدم الاستعداد للتقيد بالأخلاق الفاضلة، والرغبة الجامحة في تحقيق أكبر قدر من تلك الشهوات والملذات دون قيد، كما يلعب الشيطان إنسيا كان أم جنيا دورا كبير في إشعال نار هذه الأمراض والشهوات إلى حد يصبح فيه صاحب المرض مستعصي الشفاء. قال تعالى : **(فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً)**[1]. **(إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ)**[2]. **(فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ)**[3]. **(فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ)**[4]. **(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً)**[5]. **(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ)**[6].

---

[1]: البقرة 10.
[2]: الأنفال 49.
[3]: النحل 22.
[4]: مريم 59.
[5]: الفرقان 43.
[6]: الحج 53.